الفصل الأول

العبريون والهلال الخصيب
فى فجر التاريخ

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقًا قائلًا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ، القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين، والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين »[1] .

وبذلك وسعت أرض الميعاد ضمن ما وسعت تلك الساحة التى تعرف ببلاد الهلال الخصيب وكان ذلك الميثاق الذى قطعه الرب مع أبرام أصل تلك العبارة المنقوشة على أبواب الكنيست الإسرائيلى شعارًا لدولة إسرائيل « من النيل إلى الفرات » فالهلال الخصيب كما تجرى رواية التوراة هو أرض الميعاد التى وعد بها إبراهيم فى عبوره من أور إلى أرض كنعان بأمر الرب لتشمل أيضًا كل ما يقع شرقى نهر النيل . أما فلسطين فهى بعض أرض الميعاد وليست كل أرض الميعاد ارتبطت فى أذهان اليهود بأورشليم والهيكل ومملكة داود وبالعهد الذى أبرمه الرب مع إبراهيم بعد مولد إسمعيل وخصّ به أرض كنعان لتكون ملكًا أبديًّا لنسله ولم يكن له نسل حينذاك إلّا إسمعيل « وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا

(١) تكوين ١٥ : ١٨ - ٢٠ .

أبديًّا وأكون إلههم[1] » وكان العهد لإسماعيل أب العرب فلم يكن إسحق أب إسرائيل قد ولد بعد كما نقصّ عليك من أمرهما .

وجاء السبى البابلى فألهب خيال الإسرائيليين بالعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل الذى دمّره نبوخذ نصر ومن ثم كانت الدعوة الصهيونية بالرغم من أنها دعوة سياسية ومذهبية جديدة كلّ الجدّة ، تضرب فى أغوار الماضى بجذور دينية وعنصرية عميقة لا ترجع إلى النبوءة بقدر ما ترجع إلى الأمل الجامح بعودة مملكة إسرائيل وملك داود .

أما النبوءة فقد حقّت لا لنسل إبرام من إسحق ولكن لنسله من إسمعيل ، فملك الإسماعيليون أو العرب كلّ الهلال الخصيب ودانت لهم شعوبه . وأما بنو إسرائيل فذهبوا بددًا فى الأرض ولم تقم لهم دولة فى فلسطين أو فى أية بقعة أخرى من بقاع الهلال الخصيب إلّا هونًا من الزمن .

وسنرى من سياق هذا البحث لمن كان عهد الرب فى التوراة والإنجيل والقرآن وعلى من صدقت نبوءة إبراهيم فى رواية التاريخ ، تاريخ الهلال الخصيب منذ فجره الأوّل حتى يومنا هذا .

فالهلال الخصيب هو مسرح الأحداث فى تاريخ بنى إسرائيل .

فما هو هذا الهلال الخصيب ، وكيف كان فى فجر التاريخ ، وما نصيب بنى إسرائيل فى ملحمته الكبرى ؟

* * *

على امتداد الصحراء العربية نحو الشمال يرتكز سهل من الأرض الخصبة على شكل قوس عظيم تتجاوز الصحراء طرفيه وتتعمق فى قلبه ، بينما تحيط به الجبال من ورائه على شكل قوس ، فيبدو كالهلال المقلوب

---

(١) تكوين ١٧ : ٧ - ٨ .

مما دعا العلامة المصريولوجى « برستد » لأن يطلق عليه اسم الهلال الخصيب[1] فيعرف بذلك من بعد وتصبح هذه التسمية علمًا عليه .

وينتهى الطرف الغربى للهلال الخصيب فى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط بينما يرتكز طرفه الشرقى على الخليج العربى وبذلك تقع العراق فى نطاقه الشرقى حيث أينعت حضارة سومر وازدهرت مملكتا بابل وآشور على مدى قرون من تاريخ العالم القديم فى حين تحتل سوريا قلبه حيث قامت حضارتا الآراميين والحيثيين وامتدّ ملكهما حتى طوى الجزء الأكبر من بلاد سوريا الحديثة . أما فى نطاقه الغربى فتقع لبنان فى الشمال حيث قامت حضارة الفينيقيين وفلسطين فى الجنوب حيث استقرّ الكنعانيون والفلسطينيون فى الزمن القديم .

وكان الهلال الخصيب وما زال إلى اليوم منطقة صراع عنيف بين سكان الصحراء وسكان الجبال يتنازعون عليها ، كلٌّ يريد امتلاك ما يسدّ حاجته منها ، تلك الحاجة التى دفعتهم من قلب الصحراء أو حافتها أو من سفوح الجبال لانتجاع تلك الأرض الخصبة المليئة بالخير والمرعى[2] .

وكثيرًا ما كان يستقرّ هؤلاء النازحون فى الأرض الجديدة فيقيمون ملكًا حتى تنزو عليهم أفواج أخرى من سكان الصحراء أو الجبال فيجلونهم عن أماكنهم أو يشاركونهم الإقامة والانتجاع .

وليس تاريخ هذه المنطقة إلّا تاريخًا للصراع الحادّ بين سكانها وسكان الصحراء والجبال ، بل إن هذا الصراع ليشكل طورًا من أطوار الحياة الإنسانية فى هذا الإقليم إن لم يكن أهم أطوارها جميعًا ، فإن هذا الصراع وإن كان صراعًا على الماء والمرعى إلّا أنه كان فى كثير من الأحيان

---

(١) J.H. Breasted : Ancient Times. C.IV.

(٢) برستد وترجمة أحمد فخرى : انتصار الحضارة ص ١٠١ .

صراعًا بين مذاهب وعقائد وأديان وثقافات وحضارات طبعت الحياة الإنسانية فى هذا الإقليم بطابع فريد كان له أعظم الأثر فى سير الحضارة العالمية وتطوّرها . ففى هذا الإقليم التقت الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام كما التقت حضارات التاريخ الأولى .

وكثيرًا ما كان هذا الصراع يتخذ شكلاً آخر فليس هو صراعًا على الماء والمرعى أو بين الموجات البشرية المندفعة من حافة الصحراء أو من قبلها وبين سكان السهل ، بل هو صراع بين حضارتين وقوتين كان الهلال الخصيب مركز الصدام بينهما . فحضارة مصر القديمة وحضارة سومر وبابل وآشور تلاقت جميعًا فوق أديم كما تلاقت حضارات الفرس والإغريق والرومان والعرب ، وكان هذا اللقاء بين الحضارات العديدة يترك آثارًا بعيدة المدى فى حياة الإقليم لا تقلّ عمّا تركه الصدام العسكرى بين هذه الدول المتجاورة على أرضه وبين شعوبه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية .

فمن الناحية الاجتماعية لا نجد فى هذا الإقليم منذ أبعد عصور تاريخه حضارةً متميزةً انفردت بسمات أصيلة كالحضارة الفرعونية أو الهيلينية أو الرومانية ، بل كان كلّ ازدهار فى هذا الإقليم يستقى ينابيعه من الحضارات المجاورة ، وكلّ ما انفرد به سكان الهلال الخصيب من سمات أصيلة هو احتفاظهم إلى حدٍّ ما ببعض تقاليدهم وعباداتهم وأسلوب حياتهم القبلية القديمة ، بل إن عبادتهم كثيرًا ما تأثرت بالطقوس والعبادات المجاورة . فمما لا ريب فيه أن الشريعة الموسوية قد تأثرت إلى حدٍّ كبير بشريعة حمورابى وأن الديانة اليهودية تنم عن أصل صحراوى[1] وأن طقوسها قد شابها كثير من الطقوس الفرعونية والبابلية ، وأنها كانت

---

(١) فؤاد حسنين على . دكتور : التوراة عرض وتحليل ص ٩ .

تمتص على الدوام من مراسم الديانات التى جاورتها وعقائدها فأخذت فكرة المسيح المخلص عن الزراداشتية وفكرة المعبد عن البابلية وفكرة الخلود والبعث والعالم الآخر عن الفرعونية إذ لم تشر إليها التوراة من قبل ، وتشربت بعض فلسفة الإغريق والرومان ، هذا بالرغم من أنها ديانة محافظة ، إلّا أنها كانت تمتاز على كلّ تلك الديانات بفكرة الإله الواحد تلك الفكرة التى تبلورت فى عبادة آتون فى اخيتاتون أو تلّ العمارنة على يد الفرعون إخناتون أو امنحتب الرابع .

ومن الناحية السياسية لم تقم فى هذا الإقليم أمة موحّدة متماسكة تصهر فى أتونها هذه القبائل أو الشعوب العديدة ، ولم يقم كيان سياسى لدولة استطاعت أن تعيش طويلاً أو أن تسيطر على بقاعه سيطرةً كاملة لأكثر من جيل أو جيلين ، بل عاشت هذه الشعوب فى وحدات شبه سياسية لم تعْدُ أن تكون دويلات صغيرة ظلّت تحتفظ بطابعها القبلى القديم رغم ما بلغته من حضارة وازدهار . ولم يحدث أن توحدت بلاد الهلال الخصيب إلّا فى ظلّ العرب وفى نطاق الدولة الإسلامية الكبرى مما يعدّ مصداقًا لعهد الرب لنبيه إبراهيم بأن يرث نسله تلك الساحة وهم أصحابها وهم نسل إبراهيم

وينتسب سكان هذا الإقليم منذ أقدم العصور إلى الجنس السامى ، وكان هؤلاء الساميون قد أخذوا يفدون من الصحراء إلى الهلال الخصيب فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد[1] تقريبًا ، وكان السومريون قد سبقوهم إلى انتجاع الطرف الشرقى من الهلال الخصيب قبل ذلك بعدّة قرون ، ومن المحتمل أنهم قد بدأوا فى تجفيف المستنقعات حول رأس

---

(١) جواد على . الدكتور : تاريخ العرب جـ ١ ص ١١

الخليج العربى قبل موجة النزوح السامى بخمسمائة عام[1] ولا يعرف على التحقيق أصل هؤلاء السومريين[2] ولكنهم ليسوا من الجنس السامى ، وجاءت نسبتهم إلى البلاد التى كانت لهم السيادة عليها من أرض الرافدين والتى عرفت باسم سومر وتحدثت عنها التوراة باسم سهل « شنعار » وعرفت فيما بعد باسم بابل [3] . ومن المحقق أن أقدم حضارات الهلال الخصيب هى الحضارة السومرية . ولم يكوّن السومريون دولةً متحدةً بل كوّنوا عدة دويلات قويّة تجاورت واقتتلت فلم تتمتع بالأمن والسلام إلّا فترات قصيرة من تاريخها ، غير أن أصولها وتقاليدها ودياناتها وحضاراتها كانت واحدة .

وجاءت هزيمة السومريين على يد فاتح سامى اسمه « سرجون » قاد رجاله الأكديين المسلّحين بالقسى من جبال عيلام الشرقية فى القرن السادس والعشرين ق.م. وحلّ بهم على الدويلات السومرية فتغلّب عليها وجعل من نفسه سيدًا على سهل شنعار بأكمله[3] .

وكان سرجون أوّل زعيم سامى وأوّل حاكم يؤسس ملكًا كبيرًا فى غرب آسيا ، امتدّ من عيلام فى الشرق إلى البحر الأبيض المتوسط فى الغرب وإلى أعالى الرافدين .

وقد اختلط هؤلاء الأكديون الساميون بالسومريين فاقتبسوا حضارتهم وعاشوا بينهم وكان نتاج هذا الاختلاط تكوّن أمة جديدة عرفت باسم « سومر وآكد » ازدهرت حضارتها تحت زعامة مدينة « أور » لثلاثة قرون تلاها قرنان من التدهور والخمول . والحضارة البابلية هى ثمرة هذا

---

(١) انتصار الحضارة ص ١٥٨ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ص ١٥٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٧ .

الامتزاج بين الحضارتين السومرية والآكدية وتعدّ أعظم مظهر لتطور حياة الإنسان فى سهل شنعار .

ولم ينس الناس روعة هذه الحضارة ولا عظمة مدينة « أور » فيما بعد، فحين أخذ العبريون بأسباب الاستقرار والحياة فى فلسطين كانوا يفخرون بأن أباهم إبراهيم عاش فى مدينة أور قبل أن ينحدر منها بأمر الرب إلى أرض كنعان[1] .

وقضت دولة « سومر وآكد » حين غزاها ساميون جدد فى نهاية القرن الثالث والعشرين ق. م، عندما اجتاح العيلاميون المدن السومرية من الشرق وأسروا آخر ملوك « أور » واجتاح العموريون بلاد آكد من الغرب وتمكن أحد زعمائهم من أن ينصب نفسه ملكًا على بابل فى منتصف القرن الحادى والعشرين ق.م، وأديل من مدينة أور إلى مدينة بابل فى السيادة على سهل شنعار القديم الذى عرف منذ ذلك الوقت باسم بلاد بابل وكان ذلك حين تمكن « حمورابى » من أن يقهر الحاكم العيلامى الذى كانت له السيادة والزعامة على مدن سومر وآكد فى الجنوب .

وبلغت حضارة بابل أوجها تحت حكم حمورابى ، وكان حمورابى حاكمًا قويًّا ومشرّعًا عظيمًا ، فظل ذكره يتردّد فى بقاع الهلال الخصيب إلى ما بعد موته بألف عام وبقيت شريعته إلى يومنا هذا علمًا عليه كأقدم شريعة تنظم علاقات البشر وأحوالهم ومعاملاتهم .

ولم تعمر بابل طويلاً بعد حمورابى فقد تعرضت لموجة بشرية جديدة جاءت إليها من الشرق من جانب قوم عرفوا بالكاسيين ، وقد أخذ هؤلاء الكاسيون ينطلقون فى دفعات متعاقبة إلى أرض بابل لم يستطع البابليون دفعها ، وعلى خلاف هجرة الكاسيين الذين استقروا فى بابل نجد غارة

---

(١) تكوين ١٢ : ١ - ٦ .

أخرى تندفع إليها من الشمال الغربى يقوم بها الحيثيون ، نهبت بابل وسلبتها وغنمت ما فيها وعادت إلى بلادها بعد أن قضت على آخر ملك من نسل حمورابى ، ولم يجد الكاسيون بعد ذلك جهدًا فى فرض سيادتهم على بابل فهوت وانحدرت إلى الزوال حتى ظهرت كلديا على مسرح التاريخ .

ونجد مركز الثقل فى الهلال الخصيب ينتقل بعد سقوط بابل إلى الشمال الشرقى حيث قامت دولة آشور ، وفى تلك البقاع الشمالية من الهلال الخصيب يظهر على مسرح الحوادث إلى جوار الساميين أقوام غير ساميّى الأصل ممن اصطلحنا على تسميتهم بالشعوب الهندو أوربية وهم الذين انحدروا إلى أوربا فيما بعد ووصلت موجاتهم التى قامت من الهند إلى الجزر البريطانية . وكانت أشور هى مركز الالتقاء بين الساميين وهؤلاء الأقوام غير الساميين ، فإلى الشمال نرى أن المراكز الأمامية المتقدمة للأجناس الهندو أوربية كانت فى مملكة خيتا فى آسيا الصغرى وفى بلاد الميتانى فى أعالى الفرات بينما وصل الساميون فى توسعهم إلى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا وبعض جهات أوربا الجنوبية الغربية وبذلك سار التوسع السامى والآرى فى خطين متوازيين مع بعضهما على وجه التقريب .

وكان على دولة أشور أن تواجه خطر القوى المجاورة التى تحول بينها وبين التفوق والظهور . وكان أعظم ما يهددها منها دولة الميتانى فى الفرات وخيتا فى آسيا الصغرى ومصر التى مدّت ذراعيها إلى الهلال الخصيب واشتبكت مع خيتا فى صراع عنيف على امتلاكه ، كما كان عليها أن تواجه خطر قوى جديدة نجمت عن موجة أخرى من موجات النزوح السامى فى غرب آسيا فإلى الغرب من أشور كان الآراميون قد بدأوا ينزحون إلى

سهل البقاع الخصيب وما وافى القرن الثانى عشر ق.م حتى رأيناهم قد أسسوا عددًا من المدن الزاهرة فى سوريا استطاعت أن تتمثل كثيرًا من سمات الحضارتين المصرية والحيثية ، وإلى الجنوب من سوريا وفدت القبائل العبرية وأخذت تحتل الأرض وتتوطنها وأخذ الاثنان يقيمان سدًّا منيعًا أمام تقدّم الأشوريين إلى البحر ، وكانت القوّتان الغربيتان – مصر وخيتا – قد انسحبتا من الميدان عام ١١٥٠ ق.م . بعد أن انتابها الضعف ولم تقو دولة الميتانى على البقاء فانتهى أمرها قبل ذلك بزمن ولم يبق فى الميدان غير أشور لترث ملك الشرق . فما أن أهلّ القرن التاسع ق.م . حتى أخذت القوات الأشورية تشقّ طريقها إلى الغرب فسقطت دمشق عام ٨٣٢ ق.م . وبعد ذلك بعشر سنوات سقطت السامرة حاضرة مملكة إسرائيل الشمالية بعد حصار دام ثلاث سنوات[١] . ثم نزل الأشوريون على المدن الفينيقية فما لبثت أن تهاوت واحدةً بعد الأخرى أمامهم وأخذوا يتقدمون جنوبًا إلى مصر فاجتاحهم وباء الملاريا فى وادى الأردن وحال بينهم وبين التقدم إلى وادى النيل ، وهو الوباء الذى اجتاح قوات اللنبى بعد ذلك بسبعة وعشرين قرنًا عند عبورها لوادى الأردن لمهاجمة شرق الأردن بعد استيلائها على بيت المقدس ، كما اجتاح من قبل جيش نابليون الذى كان يحارب فى تلك البقاع وارتدّ أمام عكّا وهو الوباء الذى أشارت إليه التوراة فيما نزل بجيش سنحاريب بقولها « إن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مائة ألف وخمسة وثمانية ألفا . ولما بكروا صباحًا إذا هم جميعًا جثث ميتة »[٢] .

ولم تنج بابل من فتك الأشوريين واستمرت تقضّ مضاجعهم بثوراتها

---

(١) H. Wheeler Robinstien : The History of Israel.C.IV.P.9s.

(٢) الملوك الثانى ١٩ : ٣٥ .

ولم يجد سنحاريب بأسًا من أن يمحوها من الوجود ففتح عليها مياه القنوات لتغمر أطلالها بعد أن فرّ عنها أهلها ، أما مصر فقد اجتاحها حفيده بعد أن عزّت على جدّه فأصبح لفترة من الزمن سيد النيل الأدنى[1] .

وما أن أهلّ القرن السادس ق.م . حتى كان الأشوريون سادة الهلال الخصيب على أنه لم يمض جيل واحد حتى سقطت أشور تحت ضغط الكلدانيين من الجنوب والميديين من الشمال عام ٦١٢ ق.م . وورث الكلدانيون سادة بابل الجدد ملك الأشوريين وأصبح الهلال الخصيب بأسره تحت إمرتهم واكتفى الميديون وهم من الأقوام الهندو أوربية بحكم الجبال الشمالية ، وأعاد الكلدانيون بناء بابل وأفسح نبوخذ نصر أعظم ملوك الكلدانيين فى مساحتها وبنى لحراستها الأسوار والبروج الحصينة وجعل منها أعظم مدن الهلال الخصيب .

وقد هزم نبوخذ نصر جيوش الغرب المتحالفة ضدّه فى معركة « قرقميش » عام ٦٠٥ ق.م . ثم قام بحملات تأديبية على البلاد التى ثارت عليه .انتهت بالقضاء على مملكة يهودا وتحطيم أورشليم وتدمير الهيكل ، وحمل اليهود سبايا إلى أرض بابل عام ٥٨٦ ق.م .

ولم تعمر دولة بابل طويلًا فما أن مات نبوخذ نصر عام ٥٦١ ق.م حتى انحدرت البلاد إلى مهاوى الضعف والاضمحلال وأخذت تفسح مكانها لظهور أقوام جدد لم يكونوا من الساميين فى هذه المرة وإنما كانوا من العناصر الهندوأوربية التى بدأت تعلو وتظهر فى الشرق والغرب وتسود العناصر السامية فى غرب آسيا لألف سنة جديدة لم تنته إلّا بظهور العرب على مسرح التاريخ فى القرن السابع بعد الميلاد فأعادوا سيطرة الجنس

---

(١) انتصار الحضارة ص ٢١٦ .

السامى على الهلال الخصيب واكتسحوا فى طريقهم غربًا وشرقًا تلك العناصر الهندوأوربية وتوسعوا على حسابها فقامت الدولة الإسلامية وامتدت من سدّ الصين فى الشرق إلى سيف الأوقيانوس وجزر الآزور فى الغرب وطوت تحت ظلّها كثيرًا من الشعوب الهندوأوربية التى اعتنقت الإسلام وشاركت فى بناء الحضارة الإسلامية وبلغت ما لم تبلغه دولة الإغريق أو الرومان قديمًا وما لم تصل حتى إليه الإمبراطورية البريطانية أو الروسية فى العصر الحديث . وتحققت فيهم لأوّل مرّة نبوءة إبراهيم بأن يكون من نسله أمم وملوك منه يخرجون وأن ترث ذريته أرض الهلال الخصيب .

سقطت بابل عام ٥٣٨ ق.م . تحت ضربات الفرس الذين ساروا بقيادة ملكهم كورش أوّل فاتح عظيم من الجنس الهندوأوربى يجتاحون غرب آسيا ويحاربون أبناء عمومتهم الهندوأوربيين فى ليديا وبلاد الإغريق ويقضون على سيادة الجنس السامى فى بابل ومصر والهلال الخصيب .

وعندما قام الإغريق ومن بعدهم الرومان فى الغرب اشتبكوا فى صراع مرير على احتلال مراكز الصدارة فى العالم القديم كالصراع الذى قام من قبل بين الشعوب السامية لنفس السبب .

ولم ينته هذا الصراع بين الشعوب الهندوأوربية إلّا بقيام العرب الساميين ليوجّهوا قوتهم الفتيّة ضدّ الفرس والرومان فى وقت واحد .

هذا هو تاريخ النزوح السامى إلى الهلال الخصيب واستقرار الشعوب السامية فى أرضه وما صحب هذا الاستقرار من صراع عنيف على العيش وآخر على السيادة والملك ، هذا الصراع الذى شكلته البيئة ودفعت إليه طبائع الحياة فى إقليم كالهلال الخصيب ومازالت بذور هذا الصراع كامنة فى تربته يورى ضرامها فى زمننا هذا انحدار اليهود إلى بقاعه حالمين بعودة مملكة يهودا .

ومن تاريخ الشعوب السامية فى الهلال الخصيب لا نجد للعبريين إلاّ خطًا ضئيلاً يرد فى ثنايا سطوره بينما يكتب العرب ملحمته الرائعة .

فأين هم العرب والعبريون من تاريخ الهلال الخصيب وأين هم من العناصر السامية وكيف كان كلٌ منهما من الآخر .

هذا هو موضوع الفصل التالى .

obeikandl.com